لقاء في غرناطة

حامد الفلاحي

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net

حامد الفـلاحي

لقاء في غرناطة

شبكة الألوكة - قسم الكتب

لقاء في غرناطة

لا أدري كيف وصلت الى هذا المكان ، فكل شيء فيه يوحي بالموت ، نيران كثيرة ، وأعمدة من الدخان تطرز صفحة الأفق ، وساقي الأيمن ينزف من سهم طائش أصابه ، والحقول التي تمتد أمامي كانت هشيماً تذروه الرياح .

كنت أتبيّن طريقي بصعوبة ، حتى قادتني خطاي الى إحدى القرى ، مشيت بحذر بين الجثث وأنقاض المنازل ، لم يكن هناك غير سكون الموت ، ثمة يد آثمة عبثت بكل شيء ، آلمني منظر امرأة ملقاة على قارعة الطريق ، كانت ميتة ، وقد رسمت دماؤها على الأرض خطوطاً حمراء ، ويبدو أنها تشبثت بطفلها الرضيع الذي مات بعدها جوعاً !

نزعت معطفي ، ثم ألقيت به فوق تلك المرأة ، ومضيت في طريقي ، كنت أبحث عن مكان آمن أقضي فيه تلك الليلة ، فإذا ما أشرقت شمس الغد استطعت أن أعرف أين أنا ؟

حدثتني نفسي أن أبيت في تلك القرية ، لكن مشاهد الموت والخواء ، وصفير الريح الباردة والظلام الحالك ، كان يشعرني بالرعب ، فواصلت المسير رغم ساقي المصابة ، حتى انتهى بي المطاف عند أحد الأسوار ، ضربت على الباب بقوة ، قبل أن يطل جندي برأسه من فوق السور ، فبادرته بالتحية قائلاً :

ـ السلام عليكم .

أثارت هيئتي وملابسي دهشته ، فوقف ينظر اليّ في ذهول ، فقلت :

ـ افتح الباب ، البرد شديد !
وسالني وماتزال الدهشة عالقة على وجهـــه :
ـ من أنت ؟!
وتبعثرت الكلمات في فمي،وقد آلمتني لذعة البرد القاسية :
ـ أنا مسلم ، من القرن الخامس عشر الهجري .
التفت الى جندي آخر جاء ليقف الى جانبــه وقـال :
ـ أظنه مجنــوناً !
فأجابه صاحبــه :
ـ افتح له الباب ، فالبرد شديد ، وهو لا يحمل سلاحاً .
ودخلت المدينـــة .....
وسألت الجندي الذي قادني الى أحد أبراج المراقبة :
ـ أين أنـــا ؟
وأجابني وهو يشير الى موقد النار :
ـ هذه (غرنـــاطة) .
غرناطة ؟ أتـــراني ركبت عجلــة الزمــن فعادت بي الـى الوراء أكثر مـــن خمسمائة سنة ؟!
شعرت بالدفـء يسري فـي جسدي ، وسألت الجندي وأنا أدني ساقي المصابة من موقد النار :
ـ لقد أبصرت نيراناً كثيرة في تلك الضاحية .
وأجابني وهو يضغط بقوة على مقبض سيفه :
ـ هذه جيوش قشتالة .
وسألتـــه :
ـ (فرنانـــدو) و (آيسبيـــلا) ؟
قـــال :
ـ نـــعم .
قلت :

ـ تلك إذن (سانتافيه) ؟

قال :

ـ هل تعرفها ؟

قلت :

ـ حدثنا التاريخ أنّ الملك القشتالي فرناندو حاصر غرناطة في فصل الصيف ، وقد عقد العزم على أن لا يرجع عنها حتى يدخلها ، لذلك بنى لجنوده مدينة في ضاحية غرناطة الجنوبية ، وقد أطلقت زوجته الملكة آيسبيلا على تلك المدينة اسم (سانتافيه) ، وتعني بالإسبانية : الإيمان المقدس !

أطل الجندي من فوق السور ، وقاس الأفق بنظراته ثم قال :

ـ ألم تَرَ حقول (البَشَرات) ؟

قلت :

ـ لم أرَ حقولاً ولا زرعاً ولا شجراً ، لم أرَ إلا العصف والهشيم .

قال :

ـ تلك حقول البشرات ، لقد كانت فيما مضى بساطاً أخضر وحدائق غنّاء ، تمدّ غرناطة بالطعام والمؤن ، قبل أن يجوس فيها ذلك القطيع فيتلف زرعها ، ويهدم قُراها ، ويأخذ أكثر أهلها أسرى .

ثم غمغم في شرود :

ـ غرناطة مهددة بشبح الجوع والفناء ، ولكنها ليست مغنماً سهلاً .

في صباح اليوم التالي تجولت في شوارع غرناطة وأزقّتها ، خواطر مضطربة ومشاعر قلقة تتقاذف أهل المدينة ، والحزن والذهول ، واليأس أحياناً ، تبدو

واضحة على الوجوه التي أرهقها طول الحصار ، شدّ انتباهي رجل عجوز كان يجلس أمام دكان صغير ، ينكت الأرض بعصاه ، قلت وأقبلت عليه :

ـ السلام عليكم .

رفع الشيخ رأسه المثقل بالأحزان ، وقال :

ـ وعليكم السلام ورحمة الله .

أثارت هيئتي هو الآخر دهشته فسألني :

ـ كأنك غريب عن هذه المدينة ؟

وأجبته :

ـ نعم أيها الشيخ .

أشار الى مصطبة أمام الدكان ، وقال :

ـ اجلس ، مرحباً بك .

ثم أضاف وما فارقته الدهشة :

ـ من أي البلاد أنت ؟

قلت :

ـ من العراق .

قال :

ـ من مملكة آل عثمان ؟

وابتسمت قائلاً :

ـ لقد قضى العثمانيون ، وقضى بعدهم آخرون .

قال :

ـ وكيف ذلك ؟ هل سقطت تلك المملكة العظيمة ؟

ثم اعتدل في جلسته ، وتابع كلامه :

ـ كان ذلك قبل أربعين سنة ، لقد كانت أياماً جميلة ، كنت يومها شاباً ، حين جاءتنا البشرى : لقد فتح المسلمون مدينة (القسطنطينية) ، ودخلها السلطان (محمد الفاتح) ، وصلى في (أيا صوفيا) ، أول

مساجد المسلمين في (اسلام بـول) ، أليس هذا هو اسم المدينة الجديد ؟

قلت :

ـ معذرة ً أيها الشيخ ، لقد قضى آل عثمان ، وأيا صوفيا ، أصبح اليوم متحفا ً ، لقد سقطت الخلافة ، والمسلمون يعيشون اليوم (عصر طوائف) آخر كالذي عاشته الأندلس من قبل ، لا تتهمني بالجنون أيها العجوز الطيب ، إن شئت سّمني رحالة عبر الزمن ، جاءكم من المستقبل البعيد ، يسأل عن غرناطة ، وموسى بن أبي الغسان ، و أبي عبد الله الصغير .

قال :

ـ أمرك عجيب أيها الفتى !

قلت :

ـ ولكن (آينشتاين) لا يرى في الأمر غرابة .

وسألني :

ـ ومن هو آينشتاين هذا؟ جندي في الجيش القشتالي ؟

قلت :

ـ لماذا لا تأخذ الأمر ببساطة ؟

قال :

ـ كيف ؟

قلت :

ـ أنا رجل جاء من المستقبل ليشارك أهل غرناطة آلامهم .

قال وهو يهز رأسه :

ـ لا بأس .

وسألته وأنا أجول بنظري في دكانه الصغير :

ـ ماذا تبيع ؟

قال :

ـ عسل النحل .

قلت :

ـ أعندك منه شيء ؟

قـــال :

ـ كلا .

قلت :

ـ لماذا ؟

قـال :

ـ لقد شح الطعام ، ولم يعد في المدينـة منـــه إلا القليل .

قلت :

ـ والملك ؟

هز رأسه في أسىً و قال :

ـ أبو عبد الله الصغير ؟

قلت :

ـ نعم .

قـال :

ـ أتدري لماذا لقب بـ (الصغير) ؟

قلت :

ـ لأن هنـاك (أبـا عبـد الله) آخـر ، إنـه إبـن الأحمـر ، مؤسس مملكة غرناطة .

قـال :

ـ هذا صحيح ، لكن ملكنا كان صغيرا ً حقا ً .

قلت :
ـ كيف ؟
قـــال :
ـ يتحدث النـاس فـي غرناطـة أن سفارات جرت بين السلطان أبـي عبد الله والملك فرناندو لتسليم المدينـــة ، هناك رسائل سرية ، ورسل تروح وتغدو ، وهنـاك من يقـول أن فرنانـدو وعـد السـلطان (الصـغير) بـأموال ومغانم كثيرة .
فجأة قطع الشيخ حديثــه وصاح بي :
ـ انظر وراءك .
ونظرت ورائي ، فرأيتـــه فوق حصـانه ، وجهه يشرق بالنور والأمـل ، لا تملك إلا أن تحبــه حين تــراه ، كـان يلوح بسيفه في الهواء ، ويصيح بمن حولـه ، وحبات من العرق تتدلــى على وجهـه :
ـ (لم يبــقَ لنـا سوى الأرض التي نقف عليها ، فإذا فقدناها فقدنا الإسم والوطن) .
نظرت إلى الشيخ مستفهماً ، فقـال :
ـ انــه فارس غرناطة .
هزّتــني المفاجأة ، وانتفضت في مكاني ، وأنــا أقول :
ـ موسى بن أبي الغسان ؟!
أومــأ الشيخ برأسه ، ثم أطرق قليلاً ، قبل أن يرفع رأسه ويقـول :
ـ حين أحاطت جيوش النصارى بغرنـــاطة من كل ناحيـــة ، لـم يبـــقَ للمدينـــة المحاصـــرة سـوى طريــق محفوفة بالخطر، تمر عبر الجبال المحاذية لها في الجنوب وكان الطعام

والسلاح يدخل المدينة من خلال تلك الطريق ، حتى إذا دخل فصل الشتاء ، أغلقتها الثلوج المتراكمة ، فلبثت المدينة تعاني قسوة الجوع والحاجة ، وقد رأى السلطان الصغير أنّ الدفاع عن المدينة عبث لا يجدي ، ودعى قادة الجيش وفقهاء المدينة وأشرافها الى قصر الحمراء، وهناك حاول الوزير (يوسف ابن كماشة) والقائد (أبوالقاسم المليح) اقناع الآخرين بالإستسلام والنزول عند شروط الملك القشتالي ، ولم يرتفع في ذلك المجلس سوى صوت موسى ، الذي حاول أن يزرع الأمل في القلوب اليائسة ، ويقنع الحاضرين أنهم ميتون على كل حال ، فإن لم يموتوا على أرض المعركة دفاعاً عن غرناطة ، ماتوا ذلاً واستكانة وقهراً ، لكنه ، يا ولدي ، كان يخاطب قلوباً بلا أمل ، وكان يأساً لم ينفع معه كل دواء !

فجأة كثر اللغط وعلت الأصوات في سوق المدينة ، وسأل الشيخ جاره تاجر الأقمشة :

ـ ما الذي يحدث ؟

وأجابه التاجر :

ـ يتحدث الناس أنّ السلطان قرّر تسليم المدينة ، وأنّ ابن كماشة وأبا القاسم المليح قد دخلا سرّاً الى قصر الحمراء ، ومعهما سفير الملك فرناندو ، وهو يحمل وثيقة التسليم وشروطه .

نظرت إلى حيث كان يقف موسى بن أبي الغسان ، فإذا به يخترق الصفوف كالأسد الجريح ، جريت وراءه ، حتى دخل قصر الحمراء ، حاولت أن أدخل وراءه فاعترض أحد الجنود طريقي ، حاورته فأتعبني ببروده ، ثم هددني قائلاً :

ـ ابتعد ، وإلا قذفت بك في السجن !

لم ابتعد كثيراً عن الحمراء حين تباطأت خطواتي ، ثم توقفت ، والتفتّ ، كان الجندي لا يزال في مكانه ، يرمقني بنظرات متحدية ، فبدأت أفكر : لماذا لا أحاول التسلل إلى القصر من طريق أخرى ؟ إنّ هذا يوم له ما بعده ، فلِمَ لا أحاول ؟

استطعت أن أتسلق سور الحمراء ، شعرت بغير قليل من الألم في ساقي المصابة ، أمسكت بغصن شجرة ، ثم قفزت ، ووجدت نفسي وسط إحدى قنوات الماء ، وحين خرجت منها كانت نصف ثيابي مبتلة ، ترامي إلى سمعي أصوات مرتفعة ، عرفت أنها قادمة من قاعة الإجتماع ، اقتربت من الشرفة ، ثم نظرت من خلالها ، فبهرني الحمراء بجدرانه وأعمدته ونقوشه ، أيمكن أن تبدع كل هذا يد إنسان ؟!

لقد بدأت أفهم لماذا جنح الإسبان إلى نسج الأساطير حول هذا القصر فقالوا :

(لقد إستعان المسلمون بالجن في بناء قصر الحمراء) !!

ورأيت السلطان أبا عبد الله يجلس مطرقاً ، واليأس ماثلٌ في كل الوجوه ، ولم أرى سوى النظرات الكسيرة الحائرة ، وأطلق بعض الفقهاء دموعه فصاح بهم موسى :

ـ (إتركوا البكاء للنساء ، أما نحن فرجال لنا قلوب) .

قال أحدهم :

ـ (الله أكبر ، لا راد لقضاء الله) .

وقال آخر :

ـ (إن شروط ملك النصارى أفضل ما يمكن أن نجنيه) .

وحده موسى بن أبي الغسان ما يزال يطلــق زئير الأسد:
ــ (مـا يـزال ثمـة بـديل لكل نفس ٍ كريمـة ، ذلـك هـو المـوت وحاشـا لله أن يقـال أن أشـراف غرناطـة خـافوا الموت فسلموها إلى الأعداء) .
وقال السلطان أبو عبد الله :
ــ (الله أكبـر ، لا إلـه إلا الله ، لا راد لقضـاء الله ، تـالله لقد كـُتِبَ علــيَّ أن أكـون شـقيا وأن يـذهب الملـك علـى يدي) .
وصاح بهم موسى :
ـ (لا تخدعوا أنفسكم ، فلن يوفي النصارى بعهودهم ، إنّ المـوت أقـلّ مـا نخشـاه ، فأمامنــا نهـب مدننــا ، وتخريـب بيوتنـا ، وتـدنيس مسـاجدنا ، وهتـك أعراضـنا ، أمامنـــــا الظلــم والسـياط والأغــلال ، والســجون والمحــارق ، ذلـك مـا سـتراه النفـوس الوضـيعة ، التـي تخشى الموت وترهبه) .
ثم أضاف وهو يشير بسبابتـه في تحدّ :
ـ (أما أنــا فوالله لن أراه) .
وخـرج موسـى مـن قصـر الحمـراء ، فتبعتــه حتـى دخل بيته ، فلبس درعـه ، وحمـل سيفه وبعض الرمـاح ، ثم ركب حصانه ، فسرت وراءه في شوارع المدينـة التـي سـادها الوجـوم والقلـق ، لـم يكلّـم أحـدا حتـى انتهـى إلـى الضـاحية ، وهنـاك التقـى بـبعض فرسـان قشتــالة علـى ضفة (نهر شنيــل) ، صـاح بــه أحدهم فلم يجبه ، بــل انقضّ عليـه فطعنـه برمحـه ، ثـم أثخـن بــباقي الفرسـان بضربات قاتلة من سيفه ، دون أن يشعر بما أصابه من جـراح ، ومـا زال يقاتـل حتـى سقط عـن حصـانه ، وفقـد

سيفه ، فاستـلّ خنجره وقاتل بـه حتـى أرهقــه الفرسـان ، فسقط في النهر ، ورأيت المياه تتلون بلون دمــه !

رجعت إلى غرناطة وقد ارتدت وشاحاً من الحزن ، فقد وضع أبو عبد الله الصغير ، ولم يعد الآن سلطانـــــاً ،توقيــعه فوق أخطـر وثيقـة عرفهـا تـاريخ المسلمين فـي الأنـدلس ، وقـد رسـمت يـده العـاجزة وأناملـه المرتعشـة مصير الآلاف من أهل المدينة .

وحين وقفت أمام الشيخ بائع العسل رأيت في عينيـته دموعاً لم تتساقط ، لست أدري ، لعلها كبريـاء الرجـال ، رفع رأسه وقــال :

ـ غرنــاطة لم تستسلم ، لقد باعوها بثمن بخس !

قلت له وأنــا أجلس فوق المصطبة :

ـ لقد قُتـِلَ .

وسألني :

ـ مــن ؟

قلت :

ـ فارس غرناطة .

قــال :

ـ كلنا أموات في هذه المدينة ، موسى وحده من اختــار الحياة .

قلت :

ـ انــه يذكّرني برجال بـلادي ، الذين أبــوا أن يركعوا لغيـرالله ، رغـم أنّ العـالم ، كـل العـالم ، قاتـــلهم ، هـل تعرف أمريكا أيها الشيخ ؟

قــال :

ـ ما سمعت بهذا الإسم من قبل .

قلت :

ــ تلك بلاد بعيدة ، وراء بحر الظلمات ، اكتشفها بحّار اسباني اسمه (كرستوف كولمبس) .
أثار الاسم انتباهه فقال :
ـ هذا أحد جنود فرناندو ، لقد التقيته ذات يوم .
وسألته :
ـ متى ؟ وأين ؟
قال :
ـ قبل بضع سنوات ، هن في مكتبة غرناطة ، لقد كان يتصفح الخرائط التي رسمها علماء الجغرافية المسلمون ، أهو الذي اكتشف أمريكا ؟
قلت :
ــ نعم ، ولا أدري إن كان قد أحسن إلى العالم بهذا الإكتشاف ، فأمريكا القرن الخامس عشر الهجري هي سيدة العالم ، أو هكذا يراها الناس ، تفرض إرادتها بالقوة والخداع والإغراء ، إنها سلطة القطب الواحد ، ألم تسمع بـ (العولمة) أيها الشيخ ؟
قال :
ـ ألفاظك غريبة كهيئتك !
قلت :
ـ العولمة هي النظام الجديد لعالمنا ، وأمريكا تريد منك أن تتحرر من جذورك ، وتتنكّر لماضيك ، لتصبح (عالمياً) ، والعولمة ببساطة تريد أن تلغي الحدود الفاصلة بين الإيمان والكفر ، فالناس جميعاً ينتمون إلى هذه الأرض ، وهذا هو المهم .
قال :

ـ هي ردة إذن ؟!

قلت :

ـ هذا تعريف دقيق للعولمة ، ما سمعته من أحد قبلك .

قـــال :

ـ وماذا عن أمريكا ؟

قلت :

ـ لقد احتلت جيوشها البلاد التي جئتكم منها ، أعني بلاد العراق ، وهي تملك أقوى الجيوش وأكثر الأسلحة تدميراً ولا أريد أن أحدثك عن القنابل الفسفورية ، والغازات القاتلة ، والصواريخ العابرة للقارات ، والذرة المدمرة فقد عافاكم الله من كل ذلك ، وأمريكا تملك أكثر من ذلك في بلادي : طابور من الجواسيس الذين أصابتهم لعنة الدولار ، وطابور آخر من رجال الإعلام والصحافة ، لكنّ أمريكا ركعت في النهاية ، وراحت تستجدي السلامة والنجاة .

قـــال :

ـ وكيف هزمتم أمريكا ؟

قلت :

ـ كنّا نملك ما لا تملكه .

قـــال :

ـ ماذا تملكون ؟

قلت :

ـ نور الله أيها الشيخ الطيب ، هو الذي وحّد القلوب المؤمنة ، وأقام البنيان المرصوص ، وغرس في قلوبنا حبَّ الأرض والبلد ، حدثني أيها الشيخ : حين نقاتل بـ (لا إله إلا الله) ، هل يستطيع سلاح أن يمزق هذا الشعاع ؟

ودمعت عينا الشيخ وهو ينظر إلى قصر الحمراء ، فقد ارتفع العلم القشتالي فوق أحد أبراجه ، وإلى جانبه صليب فضي كبير ، وفتحت أبواب القصر ، ودخله مطران أسبانيا (بيدرو دي مندوسا) ، يصحبه بعض الجنود القشتاليين ، وانتفض الشيخ كالملدوغ ، ثم صرخ دون وعي :

ـ لقد باعوك يا غرناطة .

واندفع يشق طريقه وسط الجموع الذاهلة ، وهو يلوح بعصاه ، وكان ذلك آخر عهدي به .

وتدفق الحقد الأسود على غرناطة !

ولم يشأ الملك القشتالي أن يدخل المدينة حتى يمهد لنفسه طريقاً آمنة ، لقد كان يخشى المفاجآت ، وهو يعاني من عقدة اسمها (عقدة غرناطة) ، لما رآه من بأس فرسانها أثناء الحصار ، وهو يعلم أنها لم تستسلم ، ولولا الوعود والأموال التي بذلها لأصحاب القرار في المدينة ما سقطت بيده ، ولقد اشترط الملك القشتالي فيما اشترط في معاهدة التسليم أن يقدّم له أبو عبد الله الصغير خمسمائة رجل من الأشراف ، وفيهم ولده ، على أن يردّهم بعد دخوله قصر الحمراء !

وحين ارتفع العلم القشتالي فوق الحمراء ابتسم ابتسامة النصر، ثم أقبلت زوجته الملكة آيسبيلا ، ومن بعدها الوزراء والقادة يهنئونه ، وفي طريقه إلى الحمراء التقى بأبي عبد الله الصغير ، الذي سلمه مفاتيح الحمراء عند ضفة نهر شنيل الذي سقط فيه موسى بن أبي الغسان شهيداً !ثم عرج أبو عبد الله الصغير على الملكة آيسبيلا في خيمتها ، فسلمته ولده (الرهينة) !

أشار أحد المارة إلى ساقي وهو يقول :

ـ ساقك تنزف ؟!
وقلت لـه :
ـ لا عليك ، فتاريخنا كله ينزف هذا اليوم .
هـزَّ رأسه غير مبال ، ثم مضى في طريقه .
دخلت مسجداً صغيراً قد اكتظ بالناس ، وقد ارتسم على كل الوجوه سؤال حائر : أين الطريق ؟ ثمانية قرون والمسلمون هنا ، في هذه الجزيرة ، وذكريات الفتح ما زالت تضوع مسكاً في صفحات التاريخ ، وخطوات طارق بن زياد ، وموسى بن نصير تركت بصمات لا تمحى فوق هذه الأرض ، فكيف تعبث الأيدي الملوثة في فردوس المسلمين ؟ بل فردوس أوربا كلها ، وقد أخرجها من عصور الظلام والإقطاع !

ووجدت الإجابة في حوار ترامى إلى سمعي وأنا في باحة المسجد بين اثنين من (فقهاء) المدينة ، الأول يسأل صاحبه : ما تقول في شاة رضعت من خنزير ؟ وارتفعت أصواتهما ، وكلاهما يدافع عن رأيه ويسوق دليله ، وفجأة خفتت الأصوات حين دخل المسجد ثلاثة من جنود قشتالة ، ربط أحدهم حصانه في سارية من سواري المسجد ، فيما اتجه آخر إلى الميضئة فغسل يديه ووجهه ، كان يضرب الأرض بقوة ، وينظر حوله في شماتة !
واقتربت من أحد الفقيهين وسألته :
ـ ما تقول في مشرك دنّس مسجداً ؟!
فاجأه سؤالي ، نظر إليّ ولم يجب ، فقلت لـه :
ـ في زماننا يتكرر المشهد نفسه ، كانت (بغداد) تتألم وقد جاس فيها جنود الإحتلال وعصابات الموت ،

وميليشيا الطائفية ، وكنا لا نمل من الحوار ، ونختلف لأبسط الأشياء ، يكفّر المسلم أخاه ، ونقضي أكثر وقتنا في البحث عن أجوبة لأسئلة عقيمة ، ونبني قصوراً في الهواء ، قصوراً بلا أسس ، أتدرون يا أهل غرناطة ما سرّ انتصاراتنا ؟ إنه وحدة القلوب ، هكذا هي المسيرة ، من قديم بدأت ، وهكذا هي سنة الله سبحانه ، يبقى البنيان مرصوصاً ما تعانقت القلوب ، وتغزوه الشروخ حين يعشعش الحقد والغل فيها ، ثم لا نمل من الكلام .

حين خرجت من ذلك المسجد رأيت أبا عبد الله الصغير على جواده ، كان منكس الرأس ، وقد حبس الزفرات في صدره ، وحوله أهل بيته ، وبعض القادة والفقهاء ، وفوق هضبة صغيرة خارج المدينة وقف الركب الباكي ، ونظر أبوعبدالله ، وألقى نظراته الأخيرة على غرناطة ، فبدت له الحمراء ، ومساجد المدينة ، وساحاتها ، وحدائقها ، وقنواتها وقناطرها ، وقصورها ، فلم تكن في عينيه يوماً أجمل منها في تلك الساعة .

وبكى أبو عبد الله .....

وصاحت به أمه الأميرة (عائشة) :

ـ (فلتبكِ مثل النساء ،ملكاً لم تدافع عنه مثل الرجال)!!

اقتربتُ منه ، وسددت إليه نظرة ذات معنى ، وقلت :

ـ لن نستسلم كما استسلمت ، ولن نبكي كما بكيت ، هل ترى هذه الهضبة التي تقف عليها ؟ لم ينسها التاريخ ، وأهل أوربا يسمونها (زفرة العربي الأخيرة) ، وما زالوا يحتفظون بجبتك هذه في أحد متاحفهم .

زفرة يأس وجبة أسيرة ، تلك هي ذكرياتك الرديئة أيها الرجل الصغير !

تركت أبا عبد الله في وقفته الذليلة فوق تلك الهضبة ، ونزلت إلى الوادي ، الأرض مكسوة بثوب أبيض ، والرياح الباردة تدغدغ جسدي المتعب كالسكاكين ، نظرت ورائي ، وما زال أبو عبد الله يرمق غرناطة بنظرات دامعة ، والدم يسيل من ساقي المصابة ، فيرسم فوق الثلج خطاً أحمر طويلاً .

من يـــــدري ؟

ربما كان خط الدم تعبيراً عن صلة الماضي بالحاضر ، فيوم كانت بغداد ظامئة الى العدل والحرية لم يـروّها غير دماء الشهداء !

هذا الكتاب منشور في